٣ - بين المعرى ودانتى

فى رسالة الغفران والكوميدية المقدسة

بقلم محمود احمد النشوى

— أثر الروايتين فى اللغتين العربية والايطالية

حدثنا الدكتور جوفانى كابو فيلا عن أثر دانتى فى اللغة الايطالية إبان تقدمته لروايته فقال (اليه يرجع الفضل فى تثبيت دعائم اللغة الايطالية التى ملأها وهى لا تزال فى مهدها بأقاصيص الحب والعدالة والحرية والجمال)

تلك كلمة نسطرها مقتنعين بها . فللغة ايطالية وكل لغات أوروبا الحديثة إنما تزداد على مر الايام جمالا وحسنا وثراء من أخيلة ومن ألفاظ . انها تطرد فى الحسن اطراد الاوربيين فى الرقى . وهكذا اللغة تقوى بقوة الامة ، وتضعف بضعفها . وانا لنتقرى مصداق تلك النظرية فى الاوربيين المعاصرين فنرى نسبتهم فى اللغة كنسبتهم فى القوة . وقد كان الايطاليون ضعافا فى عهد دانتى فكانت لغتهم وليدة ، كما قال الدكتور جوفانى .

ونحن ما دهانا فى لغتنا ؟ . لقد كان عهدها الذهبى عصر المعرى إبان القرن الخامس الهجرى . ومن ذلك الحين أخذت تفقد شعاعها على يد التتار فى الشرق ، والاسبانيين فى الغرب ، والمماليك فى مصر ، ولا زالت تضعف تراكيبها ، وتتهلهل نسيجها ، حتى بلغت درجة

فظن بسائر الاخوان شراً ولا تأمن على سر فؤادا
فلو خبرتهم الجوزاء خبرى لما طلعت مخافة أن تكادا

هنا أحس زعيم المؤتمرين أن تلك المفاجأة - مهما يكن من شيء - قاسية شديدة ، فأخذ يلطف حرارتها ، ويخفض من شدتها بما قال مخاطبا الشاعر : لا يكن فى نفسك يا أستاذ أثر من كذبة ابريل ، فوالله ما تدرى . لعل ذلك فأل جليل ، فتطلع علينا فى غرة مايو الجميل المجلة النزيهة . وفيها لك تاج واكليل

حسن ! وما رأيك فى أن ذلك الشاعر الموتور . هو صاحب تلك السطور ؟

فرحات عبد الخالق

(الصفر) ضعفا وهزالا اواخر القرن الثالث عشر الهجرى .

بيد أن نهضتنا المباركة أعادت للعروبة طراءة الشباب وجمال الفتوة . وأرتنا كتابا من المعاصرين لا أسميهم ، ولا أبالغ ان قلت انهم فى الطليعة يسايرون الجاحظ ، وابن المقفع وعبد الحميد ، وعمرو بن مسعدة . فى الفكرة وفى الاسلوب

فذلك الضعف المطرد فى الامة العربية منذ القرن الخامس الهجرى . وتوالى الكوارث والمحن عليها أضعف من لغتها . وجعل أثر (رسالة الغفران) محدودا . وهل تستطيع رسالة الغفران أن تقاوم الضعف التى تفتحت أبوابه علينا من كل اتجاه ؟ . ان ذلك غير مستطاع . ولو أنها رقت ألفاظها ، وعذبت مفرداتها ، وسلمت من غرابة اتسحت بها ، لرجونا أن تلوكها الألسن فتعذب ، وتجول فى جنباتها الأخيلة فتسمو . ولكنها أبت أن تخرج الناس سافرة غير ذات نقاب . فوضعت من دونها حجبا وأستارا من اغراب ووحشية ومعاظلة لا تزول إلا بعد استشارة القاموس ولسان العرب ومعاجم اللغة . وقد تجد طلابتك وقد لا تجد . نعم قد لا تجد شرح بعض مفردات (رسالة الغفران) فى معاجم اللغة كلها . فحالت الغرابة دون تناولها ، وبقيت صدفاتها مغلقة على لآلئها ، فلم ينتفع بها أحد .

نزعة فى أبى العلاء إغرابه والعصر عصر حضارة ، وتوعره والزمان زمان رقة تمت فى نفسه بنمو مزاجه السوداوى ، وتقوت دعائمها بما كان يكاثر به العلماء بعضهم بعضا فى عهده من المباهاة بالغريب . ثم صوغه فى قالب جذاب ترغيبا فى حفظه .

تلك المدرسة التى كان يرفع لواءها الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ والتى وضع أساسها ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ . وابن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ . والخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ ، والبديع الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ ، وابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ . والتى كانت تكلف بالغريب تلتمس أو هى الأسباب لذكره والاكثار منه ، كان لها أثر فى نفس المعرى . فحببت اليه الاغراب والاغماض . وأخرى لعلها حدت به أن يغرب . تلك هى السخرية والدعابة التى يشم منها رائحة التطاول على الدين . فعمد المعرى للغريب يتوارى خلفه . ويتخذه جنا دون من كان يتقى ، فأرانا أفانين من الاغراب تعرب عن علمه باللغة بما تقصر دونه الاعناق ولا تكاد تحيط به العقول .

ولقد كان يأتى ببعض الغريب ثم يفسره مما نستنبط منه أن

شرح المفردات اللغوية كان أحد أغراضه من تدبيج رسالته .

وحسبي أن أضع أمامك بعض نصوصها لتحدثك عن غرابتها ، فأول ما ينطق به فى رسالته قوله : قد علم الحبر الذى نسب اليه جبريل (بالحاء) . وبينا ابن القارح يطوف فى روضات الجنة اذا به ينظر خمسة نفر فيقول لهم : مارأيت أحسن من عيونكم ! من أنتم ؟ فيقولون : نحن حوران قيس تميم بن مقبل العجلانى ، وعمرو ابن أحمر الباهلى ، والشماخ بن ضرار أحد بنى ثعلبة ، وعبيد بن الحصين النميرى ، وحميد بن ثور الهلالى . فيحاور الشماخ فى شعره ، فيقول له الشماخ : إنما كنت أسق هذه الامور وأنا آمل أن أقتر بها ناقة . أو أعطى كيل عيالى سنة . وأنا الآن إن احببت وردا من رسل الأوارى ، قرب نهر كأنه دجلة أو الفرات . ولقد أرانى فى دار الشقوة أجهد أخلاف شياه لجبات لا يتسلى منهن القعب .

وكذلك قوله : وما عمل من أجناس المسكرات . مفوقات للشاربين . وموكرات كالجعة والبتع والمزر . والسكركة ذات الوزر . الى غير ذلك مما امتلأت به رسالة أبى العلاء . فكان نصوصا منيعة دون المعنى تحول بينه وبين الأفهام . ودونك مثلا من غريب ما ذكره وفسره حين يقول . فان خرج الى الحاء فقال : من أم شح جاز أن يقول : وحوارى بمح ، وبيح ، وبرح ، وبجح وبسح . فالمح البيضة ، وبح جمع أبح من قولهم : كبر أبح أى كثير الدسم . ويجوز أن يعنى بالح القداح كما قال السلمى

قروا أضيافهم ورجا بجح يعيش بفضلهن الحى سمر

ورح جمع أرح ، وهو من صفات بقر الوحش . وقد يقال لأظلاف البقرة رح . قال الشاعر الأعشى

ورح بالزماع مردفات بها تنضو الوغى وبها ترود

والسح تمر صغير يابس ، والجح صغار البطيخ قبل أن ينضج . وسواء لدينا أكان إغرابه معاياة لعلماء اللغة أم خدمة فى سبيل إحيائها . أم تلك الاسباب كلها مجتمعة ، فقد كان ذلك النسيج دروعا حول المعنى رغبت الناس عنه . فلم تؤثر الرواية فى الجماهير . ولعل اكثارها من نقاش النحو واللغة والصرف ، صرف قلوب الناس عنها . على حين كان داتى يتخذ من روايته عظة خلقية خلابة فتهافت الناس عليها منذ ترا ، فى سماء ايطاليا .

ولعل مما يكبر المعرى فى أعين النقاد أن نقاش رسالته وهو فى غريب اللغة ، وعميق النحو والصرف والعروض ، وثلة من تلك الابحاث الجافة لم يكن جافا ، فقد أضفى عليه عذوبة من روحه جعلته عذبا شائقا . وتلك هى القدرة الفذة التى تجعل المعرى فى الخالدين

نفسية الشاعرين :

كان المعرى ههنا مرحا طروبا ، نابدأ بالفردوس ، وختم بالفردوس ، وأطلق لخياله العنان ، فى السخر وفى الدعابة ، يسمر مع الشعراء والأدباء والنحاة . بل مع إبليس ، ومع الخزنة ، خزنة النيران : يرى المعذب تندلق أقتابه ، ويسق من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت ، فيحاوره فى النحو والصرف ، وفى الرواية والتصحيف ، دون أن تجدى لديه ضراعة المعذبين واعتذارهم عن الاجابة بما هم فيه . ولم يصحب المعرى دليلا فى رحلته إيناسا لابن القارح ، وتمهيدا لسبيلها

ولكن داتى كان مروع القلب ، هلوع الفؤاد . ابتدأ الرحلة بالجحيم فلم يطق السير فى ظلماتها وحيدا . فصحب الشاعر العظيم فرجيل ، يؤنسه ويهديه سواء السبيل . بيد ان اصطحابه لم يمنعه أن يشتد به تأثره ، حين يرى الجثث تتطاير مع اللهب من اللهب . وحين يستمع العصاة وهم يصطرخون فيها داعين بالويل والثبور الواحد ، وبالويل وبالثبور الكثير .

ولقد أغمى عليه مرات عدة [illegible] وعيه حينما كان يطوف فى الطبقة الثانية من جهنم ، فرأى العاشقين باولو Paolo وفرنشيسكا Francesca وهما يتطايران متعانقين فى لهب السعير . رأى داتى تلك المخلوقة الضعيفة تلفح وجهها النيران فأغمى عليه . ولما أفاق قصت عليه قصتها . وأنها كانت هيفاء القوام ، مشرقة الطلعة ، خطبها (جانشوتو مالاتستا) القصير القامة الدميم الخلقة . فأطمع أهلها ثراؤه . فتغاضوا عن دمامته ، وإبان الخطبة أروها أخاه (باولو) الوسيم القسيم ، فأحبته وظلت ترقب ليلة الزفاف التى تجلت لها سوداء قاتمة حين رأت زوجا دميما خدعت فيه بأخيه الذى ظلت عرى المحبة بينها وبينه متواصلة . حتى أتاحت لهما الفرصة سفرا من زوجها قريبا فالتمساها وتجالسا يقرآن مغاقصة فيها تبلغاها فقلداها فتوشجت بينهما أواصر المحبة ، حتى تكشفت أمرهما لأحد الخدم ، فسعى بهما لزوجها . فحضر على حين غفلة فرآهما معا مختلين فى منأى عن أعين الرقباء ، فاستبقا الباب فاتبعهما بسيفه فقضى عليهما عقابا فى الدنيا ، يتلوه خلودهما فى الجحيم